مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الانسانية)، مجلد ٢٦(٦)، ٢٠١٢

من القِيمِ الدلاليَّة لفواصل القرآن الكريم

Denotations (Semantic Values) of Break in the Holy Quran

نائل إسماعيل

Nael Ismail

وكالة الغوث، غزّة، فلسطين

بريد إلكتروني: dr.nael1968@yahoo.com

تاريخ التسليم: (٢٠١١/١٢/١)، تاريخ القبول: (٢٠١٢/٥/٢٨)

ملخّص

الفواصل مصطلح لمقاطع الكلام المشابهة للسَّجع والقوافي، يشمل فيما يشمل فواصل القرآن الكريم، وإن لم يكن يعنيها بالذات. وقد يُطلق بعضهم مصطلح السَّجع على الفاصلة نفسها، كما يُطلق على المعنى المصدريّ وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير. وقد أُختلف في نسبة هذا المصطلح إلى القرآن الكريم، فذهب فريقٌ إلى أنَّ هذا الأسلوب فواصل، ونفَوْا عن القرآن الكريم السَّجع لرغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المرويّ عن الكهنة وغيرهم. ولكنَّ الأمر لا يتعلّق بالاسم أو المصطلح الذي نطلقه على هذه الظاهرة، بل بمدى مراعاتها للقيمتين الدلاليّة والصوتيّة معاً، فالتناسب الذي نحن بصدده هو اختيار الموادّ اللفظيّة من جهة ما يحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها لتؤدّيَ المعنى المراد دون تكلّفٍ أو تصنّع، مع تحقق الانسجام الصوتيّ والإيقاع النغميّ. وهذا ما يميز فواصل القرآن الكريم. وقد قام الباحث بتتبّع ظاهرة تناسب الفواصل في سور القرآن الكريم، موظّفاً المنهج الوصفي التحليلي في عرض النماذج القرآنية وتحليلها، وإبراز قيمها الدلالية والجماليّة الفريدة التي يتميّز بها التركيب القرآني.

Abstract

Break is a concept similar to assonance and rhyme belonging to verses. Breaks are included in the holy Quran but not confined to it. Assonance is also another concept sometimes used for break. However, there is no agreement on relating the concept of break to the holy Quran where a group of scholars prefer the concept 'break' denying the concept 'assonance' in the holy Quran. This is in order to refrain the holy Quran from concepts related to speech narrated by priests. The matter here is not solely related to the concept but concerned with attributing such a phenomenon to both phonetic and semantic values. Such inclusion refers to the choice of verbal forms which ameliorates pronouncing their letters, their regularity, forms and quality in order to convey the intended meaning without affectation. This should achieve phonetic harmony and tonal rhythm which distinguish breaks of the holy Quran. The researcher investigated the phenomenon of breaks in the different Suras of the holy Quran adopting the descriptive analytical method. First, he presented Quranic patterns, analyzed them and then presented their significant denotations and aesthetic values which distinguish Quranic constructions from others.

مقدمة

تجدر الإشارة بين يدي هذه الدراسة أنَّ بحث الفاصلة واكبَ العلوم الإسلاميّة والعربيّة منذ نشأتها الأولى - لا سيّما علم البلاغة- قبل أن تنبثق الفروع وتستقرّ المصطلحات، غير أنّه يصعب تحصيل اليقين في أول من سمّى الفاصلة، وعلى الرغم من ذلك فإنّه بوسعنا أن نلحظ تقلّب المصطلح لدى أعلام العربيّة الأوائل ، فمثلاً يقول الخليل بن أحمد الفراهيديّ في مادّة سجع: "سجع الرجلُ: إذا نطقَ بكلامٍ له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن، كما قيل: لصّها بطلٌ وتمرها دقل، إن كثُرَ الجيشُ بها جاعوا، وإن قلُّوا ضاعوا"(١).

وظاهر النصّ يفيد أن كلمة (فواصل) هنا مصطلح لمقاطع الكلام المشابهة للسجع والقوافي، يشمل فيما يشمل فواصل القرآن الكريم، وإن لم يكن يعنيها بالذات. ويؤكّد ذلك استخدام سيبويه - وهو تلميذ الخليل- لهذا المصطلح. يقول سيبويه في (باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف وهي الياءات): "وجميع ما لا يُحذف في الكلام وما يختار فيه ألا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي. فالفواصل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾(٢)، و﴿ مَا كُنَّا نَبۡغِ ﴾(٣)، و ﴿ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾(٤)، و﴿ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾(٥).

---

(١) الفراهيدي، الخليل بن أحمد: العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرّائي، دار الهلال، ٢١٤/١.

(٢) الفجر: ٤.

(٣) الكهف: ٦٤.

(٤) غافر: ٣٢.

(٥) الرعد: ٩.

والأسماء أجدرُ أن تُحذف إذا كان الحذف فيها في غير الفواصل والقوافي"(١).

ويعرّف الدانيّ الفاصلة بقوله: "أمّا الفاصلة فهي الكلام المنفصل عمّا بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية وغير رأس، وكذلك الفواصل يكنَّ رؤوس آيٍ وغيرها، وكلّ رأس آية فاصلة، وليس كلّ فاصلة رأس آية، ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذُكر سيبويه في تمثيل القوافي ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾(٢) و﴿ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾(٣) -وهما غير رأس آيتين بإجماع- مع ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾(٤)، وهو رأس آية باتّفاق"(٥).

تفيد النصوص السابقة أنّ مصطلح الفاصلة لم يستقرّ نهائيًّا، حتّى إذا جاء الفرّاء استخدم عددًا من المصطلحات للدلالة على نهايات الآيات حتّى ظُنَّ أنّه لم يعرف مصطلح الفاصلة بل مصطلح رؤوس الآيات، وهذا خلاف الحقيقة، والصواب أن الفراء عرض في كتابه (معاني القرآن) للفاصلة من خلال الإشارة إليها بالمصطلحات التالية: رؤوس الآيات، وفصول، وآخر الآية، وآخر الحروف، وأواخر الحروف(٦). فالفراء لم يقتصر على مصطلح (رؤوس الآيات)، ولم يجهل مصطلح (الفاصلة) الذي تضمّنه القول بـ(الفصول).

وقد يُطلق بعضهم مصطلح السجع على الفاصلة نفسها، كما يطلق على المعنى المصدريّ وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير. وقد اُختلف في نسبة هذا المصطلح إلى القرآن الكريم، فذهب فريق إلى أن هذا الأسلوب فواصل ونفوا عن القرآن الكريم السجع، وفي طليعة هؤلاء الباقلانيّ الذي ينفي وقوع السجع في القرآن بقوله: "لو كان الذي في القرآن على ما تقدّرونه سجعًا لكان مذمومًا مرذولاً؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان من قبيح الكلام، وللسجع منهج مرتّب محفوظ وطريق مضبوط متى أخلَّ به المتكلّم وقع الخلل في كلامه ونُسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئًا، وكان شعره مرذولاً"(٧).

فالباقلاني يرفض وجود السجع في القرآن جملة كما هو موجود في كلام فصحاء العرب؛ لأنه خرج في كتاب الله عن النظام الذي وُضع له، ولو كان سجعًا ما عجز العرب عن أن يأتوا

---

(١) سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨: ١٨٤/٤و١٨٥.

(٢) هود: ١٠٥.

(٣) الكهف: ٦٤.

(٤) الفجر: ٤.

(٥) الداني، أبو عمرو: البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث - الكويت، ط، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، ١٢٦/١.

(٦) انظر الفرّاء، أبو زكريّا: معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجار وآخرون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ط، ٢٠٠١، ١٧٦/٢.

(٧) الباقلاني، أبو بكر: إعجاز القرآن، تحقيق: أبو بكر عبد الرازق، مكتبة مصر، ١٩٩٤، ص٥١ و٥٢.

بمثله، "فالسجع ممّا كان يألفه الكهَّان من العرب، ونفيه عن القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر؛ لأن الكهانة تنافي النبوّات، وليس كذلك الشعر"(١).

وذهب الرمّاني –أيضًا- إلى امتناع أن يُقال: في القرآن سجع، وفرّق بأنَّ السجع هو الذي يُقصَدُ في نفسه ثمَّ يُحال المعنى عليه، أمّا الفواصل فتتبع المعاني ولا تكون مقصودة في نفسها، قال: "ولذلك كانت الفواصل بلاغةً والسجع عيبًا"(٢).

وذهب فريق آخر إلى أن هذا الأسلوب مسجوع، ولم يروا جناحًا في إطلاق السجع على كثير من سور القرآن الكريم وآياته محتجّين بكون السجع من الأفانين التي بها التفاضل في البيان، فهو كالجناس والالتفات وما شاكلها، وقد جاء في القرآن الكريم كما جاءت. يقول ابن النفيس: "يكفي في حُسنِ السجع ورود القرآن به، ويقول: لا يقدح في ذلك خلوُّه في بعض الآيات؛ لأنَّ الحَسَنَ قد يقتضي المقام الانتقال إلى أحسنَ منه"(٣).

ويحتجُّون -أيضًا- بما جاء في بعض الآيات من تقديم (**هَٰرُون**) على (**مُوسَىٰ**)، مع أن موسى أفضل منزلةً وأعلى قدرًا من أخيه هارون، وكان الأصل أن يُقدّم موسى، ولكن من أجل مراعاة السجع -حسب رأيهم- قُدِّمَ هارون، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾(٤)؛ لأنَّ الفواصل في هذه السورة مبنيّةٌ على الألف.

وذهب الخفاجيّ إلى أنه لا فرق بين السجع والفواصل، وخطّأ من قال: إن السجع عيبٌ والفواصل بلاغة، فإن أراد بالسجع ما يتبع المعني وهو مقصود فذلك بلاغة والفواصل مثله، وإن أراد به ما تقع المعاني تابعة له وهو مقصود متكلّف فذلك عيب، والفواصل مثله. أمَّا تسميتهم كلّ ما في القرآن فواصل لا سجعًا فلرغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المرويّ عن الكهنة وغيرهم(٥).

ونقول في هذا المقام: إنَّ الأمر لا يتعلّق بالاسم أو المصطلح الذي نطلقه على هذه الظاهرة، بل بمدى مراعاتها للقيمتين الدلاليّة والصوتيّة معًا، فالتناسب –إذن- هو اختيار المواد اللفظيّة من

---

(١) المصدر السابق، ص٥١و٥٢.

(٢) السيوطيّ، جلال الدين: معترك الأقران في إعجاز القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٢٥/١.

(٣) السيوطيّ ، جلال الدين : الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط١ ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ٣٠٥/٣.

(٤) طه: ٧٠.

(٥) الخفاجيّ، ابن سنان: سرُّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص١٧٣.

جهة ما يحسن في ملافظ حروفها وانتظامها وصيغها ومقاديرها لتؤدّيَ المعنى المراد دون تكلّفٍ أو تصنّع، مع تحقّق الانسجام الصوتيّ والإيقاع النغميّ، وهذا ما يميز فواصل القرآن الكريم.

إنَّ من خصائص فواصل القرآن الكريم أن لكلّ من القرينتين أو الفقرتين المسجوعتين معنًى يغاير معنى الأخرى، على حين أنَّ أسجاع الكتّاب والبلغاء كثيرًا ما تقوم على تأدية الفقرتين لمعنًى واحد، وهذا نوع من التطويل لا أثر له في كتاب الله، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا، وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا، وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا، وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا، وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا، وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا، وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا، قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا، وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(١)، أو أية سورة أخرى في كتاب الله، تجد هذه القاعدة مطّردة لا تختلف.

ولما قامت الدراسات البيانية ونضجت، لم يتّفق علماء البيان مع ما يقول به النحويون فيما يتّصل بلغة الشعر والنثر الفنّي؛ لأن علماء اللغة والنحو إنما ينظرون إلى الشعر ينشدون فيه غريبه أو إعرابه، وإنما ينشد البيانيّون فيه أشياء وراء الغريب والإعراب، وهي جمال التعبير وحسن وقعه في النفس.

إنَّ نظرة علماء البيان إلى لغة الشعر والنثر الفنّي لا تقوم على سلامة اللفظ أو صحّة التركيب الظاهريّ فحسب، بل يعتبرون جمال الإيقاع وحسن الأداء وبلوغ المراد بصورة أتمّ وأجمل وألذّ. يقول ابن الأثير: "ونحن في استعمال ما نستعمله من الألفاظ واقفون مع الحسن لا مع الجواز، وهذا يرجع إلى حاكم الذوق السليم؛ فإنّ صاحب هذه الصناعة يصرف الألفاظ بضروب التصريف، فما عذب في فمه منها استعمله وما لفظه فمه تركه"(٢).

ولكن هذا التصرف الذي يشير إليه ابن الأثير ينبغي أن يُحدّ أو يقيّد بأصول اللغة والعرف السائد. وقالوا بصفة عامّة: إنَّ كل ما استعمل من ألفاظ اللغة في المنثور يجوز استعماله في المنظوم، ولا يصح العكس، أي أن لغة الشعر أخصّ(٣).

---

(١) الشمس: ١-١٠.

(٢) ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١/٢٨٧.

(٣) انظر سلام، محمد زغلول: لغة الشعر وكتاب "ما يجوز للشاعر في الضرورة"، مجلة مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، الجزء السابع والعشرون، فبراير، ١٩٧١، ص١٩٥.

الدراسات السَّابقة

اهتمّت كثيرٌ من الدراسات السابقة بإبراز الخلاف بين العلماء حول مسألة وقوع السَّجع أو عدم وقوعه في القرآن الكريم، وإثبات الفرق بين السَّجع في كلام الفصحاء وفواصل القرآن الكريم، من هذه الدراسات:

١. دراسة أحمد الحوفيّ: (سجعٌ أم فواصل) المنشورة في مجلة مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة، الجزء السابع والعشرون، ١٩٧١.

٢. دراسة عبد الرحمن تاج: (السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم) المنشورة في مجلّة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السادس والثلاثون، ١٩٧٥.

٣. دراسة رمضان حينوني: (آراء حول إشكالية السجع والإيقاع في القرآن الكريم)، منشورات المركز الجامعي بتمنراست-الجزائر، ٢٠٠٩.

واهتمّت دراساتٌ أخرى بإبراز القيم الصوتيّة والإيقاعيّة لفواصل القرآن الكريم، من هذه الدراسات:

١. دراسة عمر عبد الهادي عتيق: إيقاع التجانس اللفظيّ في فواصل القرآن الكريم، منشورات مجالس الطريق إلى الجنّة، ٢٠٠٩: way2jannah.com.

٢. دراسة محمد رمضان البعّ: دلالة الأصوات في فواصل آيات جزء عم، دراسة تحليلية، المنشورة في مجلة جامعة الأقصى، (سلسلة العلوم الإنسانيّة)، المجلّد الثالث عشر، ٢٠٠٩.

٣. دراسة محمد قطب عبد العال: الأداء التصويريّ وإيقاع الفواصل في القرآن الكريم، المنشورة في مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند، الهند، العدد الثاني عشر، ٢٠٠٩م: darululoom-.deoband.c.

أمَّا دراستي هذه فتهتمُّ باستنباط القيم الدلاليّة (التركيبيّة والصوتيّة) لفواصل القرآن الكريم وتحليلها، في ضوْء بعض الظواهر اللغويّة الشائعة في القرآن الكريم، مثل: التقديم والتأخير، والاختصار والحذف، والزيادة والإطالة، والتكرار، وتفضيل صيغة على أخرى، والانسجام الصوتيّ، باستخدام المنهج الوصفيّ التحليليّ.

أوّلاً: التقديم والتأخير

أي التقديم والتأخير في بعض كلمات الجملة من غير أن يُزادَ عليها شيء، فيتحقَّق التناسق المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾(١). فإنّه يمكن -لأداء أصل

---

(١) طه: ٤٩.

المعنى- أن يُقال: (**قال يا موسى فمن ربكما**)، كما قيلَ في آيةٍ أخرى: (قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾(١). لكنَّ المولى -عزَّ وجلَّ- اختارَ النظم الذي جاءت عليه الآية -مع تساوي النَّظميْن في أداء أصل المعنى- لأنّه هو الذي يتمُّ به المعنى المراد وبه يكون تناسب الفواصل المطلوب في ذلك المقام، ولأنَّ موسى هو الرَّسول الحقيقيّ الذي إليه البشارة والإنذار، ثمَّ جاء التناسب تبعًا لهذا المعنى وليس سابقًا له(٢). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾(٣). فإنَّ هذا المعنى يُمكن أن يُؤدَّى بأن يُقال: (**فألهمها تقواها وفجورَها**)؛ لكنه رُجّح النظم الذي جاءت عليه الآية؛ لأنَّ التقوى بعد الفجور أصلح للإنسان في دنياه وآخرته، لقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾(٤)؛ ولأنَّ هذا الترتيب هو الذي يتحقَّق به المقصود من التناسب، وذلك رعايةً لفواصل السورة(٥) ﴿ ضُحَىٰهَا، تَلَىٰهَا، جَلَّىٰهَا، يَغْشَىٰهَا ﴾(٦).

ومن ذلك -أيضًا- قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا)(٧)، وذلك أنَّ الرسالة أخصُّ من النبوَّة، والمعهود في الكلام المرسل الذي يجمع فيه بين عامٍّ وخاصّ أنْ يُقدَّم العامُّ على الخاصّ، ولكنّه قدَّم في هاتين الآيتيْن الخاصّ على العام مراعاةً للفواصل مع اتّحاد المعنى(٨)؛ لأنَّ السورة بُنيَت على فاصلة الياء المشدّدة والألف: ﴿ مَرْضِيًّا، نَّبِيًّا، عَلِيًّا، بُكِيًّا ﴾(٩).

---

(١) القصص: ١٩.

(٢) انظر الزركشيّ، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية، ٣/٣٣٥.

(٣) الشمس: ٧و٨.

(٤) هود: ١١٤.

(٥) انظر الألوسيّ، شهاب الدين: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطيّة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ١٥/٣٦٠.

(٦) الشمس: ١-٤.

(٧) مريم: ٥٤.

(٨) انظر الزركشيّ: البرهان في علوم القرآن، ٣/٤٠٤.

(٩) مريم: ٥٤- ٥٨.

وكثيرًا ما ترافق الفواصل أغراضٌ بلاغية أصيلة تتجلّى من نسق الآية، أو من إيثار لفظ على لفظ، ففي قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ، وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ، وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾(١)، قُدِّمت المفعولات (رَبَّكَ)، و(ثِيَابَكَ)، و(ٱلرُّجْزَ) على الأفعال (كَبِّرْ)، و(طَهِّرْ)، و(ٱهْجُرْ) للقصر البلاغيّ من ناحية، ولتحقيق موسيقى الفواصل من ناحية أخرى، وقدّم الجار والمجرور (لِرَبِّكَ) على الفعل (فَٱصْبِرْ) للغرض نفسه. قال صاحب البحر المحيط: "وتقديم المفعول على الفعل يدلّ على الاختصاص، ودخلت الفاء لمعنى الشّرط، كأنّهُ قيل: وما كان فلا تدع تكبيره"(٢).

ومن تقديم المفعول به قوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ، ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾(٣)، فتقديم المفعول في (ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ) يدل على الحصر، أي: لا تُصلّوه إلا الجحيمَ، وهيَ النّار العظمى، لأنّه كان سلطانًا يتعظّم على النّاس(٤)، وتقديم (سِلْسِلَةٍ) للدّلالة على الاختصاص كتقديم الجحيم(٥)، وقد أسهم التقديم -بالإضافة إلى دلالته على الحصر والاختصاص- في تحقيق التناسب اللطيف بين فواصل الآيات.

ومثاله –أيضًا- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) المدّثّر: ١- ٧.
(٢) الأندلسيّ، أبو حيّان: البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٢٠هـ، ٣٢٥/١٠.
(٣) الحاقّة: ٣٠-٣٢.
(٤) انظر الأندلسيّ: البحر المحيط في التفسير، ٢٦١/١٠.
(٥) انظر الشوكانيّ، محمد بن علي: فتح القدير، المكتبة العصريّة، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ٣٤٠/٥.

لَهُمۡ نَصۡرًا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴾(١). ففي قوله تعالى: (وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ) عدلت الآية عن الأصل، وهو (وَلا يَنصُرُونَ أَنفُسَهُم) إلى التقديم والتأخير، طلبًا للقصر والتوكيد، ومراعاةً للتناسب بين فواصل الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ، قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ، فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ، قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ، وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴾(٢)، قُدّم الضمير، وهو الهاء في كلمة (نَفۡسِهِ) لسبب معنويّ، وهو الدلالة على أنّ خوف موسى كان يجيش في نفسه ولكنه خفي على السحرة، وهذا التقديم أدقّ من التأخير، ولسبب لفظيّ هو أنَّ الفاصلة ألف مقصورة ناسبها أن تجيء كلمة (مُّوسَىٰ) في آخر الآية(٣).

ثانيًا: الاختصار والحذف

ويكون بالاختصار في الجملة بحذفِ جزءٍ معلومٍ حقّ العلم من المقام، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(٤). فإنَّه إذا كان الأصل عدم حذف ضمير المفعول، وأن يُقال: (**ربّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثمَّ هداه**)؛ فإنَّ المعنى لا يختلف عمَّا جاءت عليه الآية(٥)، ثمَّ يُرجّح نظمها بأنّه هو الذي يتحقَّق به التناسب المطلوب.

---

(١) الأعراف: ١٩٠-١٩١.

(٢) طه: ٦٥-٦٩.

(٣) انظر الزركشيّ: البرهان في علوم القرآن، ٦٢/١.

(٤) طه: ٥٠.

(٥) انظر الأندلسيّ، أبو حيّان: البحر المحيط في التفسير، ٥٥/٦.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ، وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ، وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ، وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ، أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَ‍َٔاوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴾(١). فالتركيب قبل الحذف: **(ما ودَّعك ربُّكَ وما قلاك، ووجدكَ عائلاً فأغناك)**. لكنّه آثر حذف المفعول تحقيقًا لتناسب الفواصل المطلوب مع تساوي الطريقتين: (الذكر والحذف) في الدلالة على المعنى المقصود. ومثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾(٢). يقول الفرّاء: "وقد قرأ القُرَّاء (يَسۡرِي) بإثبات الياء، و(يَسۡرِ) بحذفها، وحذفها أحبّ إليّ لمشاكلتها لرؤوس الآيات؛ ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها"(٣).

وكذلك (طَغۡوَىٰهَا) في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴾(٤). أراد: **(بطغيانها)**، إلا أنَّ الطغوى أشكل برؤوس الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ، وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ، لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ، عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴾(٥). حُذف مفعول الفعل (تَذَر) للدلالة على التعميم بأن (سَقَر) لا تُبقي لهم لحمًا ولا تذر لهم عظمًا، أو لا تُبقيهم أحياء ولا تذرهم أمواتًا(٦) لتحقيق الفاصلة، وهي الراء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾(٧)، فـ(أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ) لا مفعول لهما في هذا الموضعِ؛ "لأنّهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول. يقول

---

(١) الضحى: ١ـ ٨.
(٢) الفجر: ٤.
(٣) الفرّاء، أبو زكريّا: معاني القرآن، ٣/٢٦٠.
(٤) الشمس: ١١.
(٥) المدّثّر: ٢٦ـ٣٠.
(٦) انظر الأنصاري، ابن زكريا: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، تحقيق: محمد علي الصابونيّ، دار القرآن الكريم، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، ١/٥٨٨.
(٧) النجم: ٤٣.

القائل: فلانٌ بيده الأخذ والعطاء يعطي ويمنع ولا يريد ممنوعًا ومعطى"(١). وقد جاء حرف الألف منسجمًا مع خواتيم الآيات السابقة واللاحقة في السورة نفسها: ﴿ أُخۡرَىٰ، سَعَىٰ، يُرَىٰ، ٱلۡأَوۡفَىٰ، ٱلۡمُنتَهَىٰ، أَحۡيَا، أَبۡكَىٰ، ٱلۡأُنثَىٰ ﴾ مراعاةً لتناسب الفواصل.

ومثال الحذف –أيضًا- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴾(٢). فقد حذفت الياء من (ٱلۡمُتَعَال) رعاية للفاصلة المتحقّقة في المدّ والوقف في ﴿ هَاد ، وتَزۡدَاد ، ومِقۡدَار، وٱلۡمُتَعَال ﴾، ولثقل الياء المحذوفة(٣).

ثالثًا: الزيادة والإطالة

وتكون الإطالة بزيادة حرفٍ أو حركة على الكلمة لتناسبَ فواصل الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠، وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾(٤). فالألف في (ٱلرَّسُولا) و(ٱلسَّبِيلا) هي الألف التي تقع في الفواصل، ويُسمِّيها النحاة ألف الإطلاق، وهي حرف يلحق القافية المطلقة فألحقت هذه الألف في الروي؛ لأن الشعر وضع للغناء والترنم(٥)؛ إذ اعتاد

---

(١) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ٢٧٩/٢٩.

(٢) الرعد: ٧-٩.

(٣) انظر الباقوليّ، أبو الحسن: إعراب القرآن المنسوب للزجاج، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، ط٤، ١٤٢٠هـ، ٩٠٧/٣.

(٤) الأحزاب: ٦٦و٦٧.

(٥) انظر سيبويه: الكتاب، ٢٩٩/٢.

الشعراء أن يترنموا في أواخر الأبيات قبل حرف الروي ليمتد بها الصوت ويقع فيه تطريب لا يتمّ إلا بمدّ الحرف، وأكثر ما يقع ذلك في الأواخر(١).

والشيء نفسه يُقال في (قَوَارِيرَا) في قوله تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ، قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾(٢). وقد اختُلِف في هذه الألف، فقد أثبتها أبو عمرو وصلاً ووقفًا، وحذفها حمزة في الوصل والوقف، وعدَّها من زيادات الخطّ فتُكتب كذلك ولا ينبغي النطق بها(٣)، وقرأ ابن كثير والكسائيّ بإثباتها وقفًا وحذفها وصلاً(٤). وقال الشوكانيّ: "وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية(٥)؛ ذلك أَنَّ فواعل وفواعيل لا تنصرفان، ووقفوا على الأولى بِالألف لأَنَّها رأس آيَة وآيتها على الألف، ووقفوا على الثَّانية بغير ألف لأَنّها ليست برأس آية"(٦).

وقد تكون الزيادة والإطالة بإثبات بعض الأصوات، مثل هاء السكت في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ، فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَابِيَهْ، إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ (٧)؛ إذ جاءت كلمة (كِتَابِيَه) بدلاً من كتابي، وكلمة (حِسَابِيَه) بدلاً بدلاً من حسابي، والْهَاء "إِنَّمَا أُتِي بهَا للسكت لتبينَ بهَا حَرَكَة مَا قبلهَا"(٨)، "وحقُّ هذه الهاءات أن تثبت في الوقف وتسقط في الوصل، وقد استُحب إيثار الوقف إيثارًا لثباتها في المصحف"(٩)، المصحف"(٩)، وليس لذلك أثرٌ في المعنى، بل مراعاةً لفواصل الآيات عند الوقف عليها.

---

(١) انظر ابن جنّي، أبو الفتح: المنصف، دار إحياء التراث القديم، ط١، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، ص٢٢٤.

(٢) الإنسان: ١٥و١٦.

(٣) انظر البغداديّ، أبو بكر: السبعة في القراءات، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٤٠٠هـ، ص٦٦٤.

(٤) انظر الزمخشريّ ، جار الله : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربيّ ، بيروت ، ط٣-١٤٠٧هـ ، ٦٧١/١.

(٥) الشوكانيّ: فتح القدير، ٣٢٩/٤.

(٦) أبو زرعة، عبد الرحمن: حجّة القراءات، تحقيق: سعيد الأفغاني، دار الرسالة، ص٧٣٩.

(٧) الحاقّة: ١٨-٢٣.

(٨) أبو زرعة: حجة القراءات، ص٩٣.

(٩) الزمخشريّ: الكشّاف، ٦٠٣/٤.

وفي قوله تعالى: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ، هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ، خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾⁽¹⁾، قَرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَعَاصِم وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر (مَالِيَه) و(سُلۡطَٰنِيَه) بإثبَات الْهَاء فِي الْوَصْل⁽²⁾، فتكون قراءتها بالوصل هكذا: ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ خُذُوهُ ﴾ فقد أُدخلت الهاء لتبيِّن بها حركة ما قبلها في الوقف؛ إذ المسكوتُ عليهِ ساكن، فكرهوا أَن يسكتوا على الياء فلا يُفرَّق بينها -وهي متحركة في الوصْل- وبينها وهي ساكنة في الوصل، فبيَّنوا حركتها بهذه الهاء؛ لأَن دُخُول الْهَاء أَمارَة إِذا وصل القارئ الآية بالآية، وإِنَّما يصلح إِثْبَات الهَاء فِي فواصل الآيات؛ لأنَّها مسكوتٌ عليها⁽³⁾.

رابعًا: التكرار

من السمات الدلالية التي تلفت الانتباه أنَّ النصّ القرآني يلجأ في بعض السياقات إلى تكرار كلمات أو أسماء بعينها لتوكيد معنًى أو قيمة، وفي الوقت ذاته تحقيق التناسب بين فواصل الآيات فيتحقّق بذلك الانسجام بين التركيب والدلالة، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا، وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ، قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾⁽⁴⁾. فتكرار (رَّسُولا) في الموضعين الأولين يؤكّد ارتباط هذه الصفة بالبشر؛ لأنَّ الرسول من جنسهم ، ونفيها عن الملائكة في الموضع الثالث، وذلك ردًّا على إنكار المنكرين الذين قالوا: (أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا)؛ لأنّهم جهلوا أَن التجانس يُورث التآنس والتغاير يُورث التنافر⁽⁵⁾، "فأعلمَ الله أنَّ الأعدل الأبلغ أن يبعث إلى كل خلق من

---

(١) الحاقّة: ٢٨-٣٠.

(٢) انظر البغداديّ: السبعة في القراءات، ص١٨٨.

(٣) انظر أبو زرعة: حجّة القراءات، ص٧١٩.

(٤) الإسراء: ٩٣-٩٥.

(٥) الكرمانيّ، برهان الدين: أسرار التكرار في القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة للنشر، ص١٦٦.

كان من جنسه"⁽١⁾. وقد جاءت (**رَّسُولاً**) مكرّرةً ومنصوبة، توكيدًا لصفة البشريّة في الرسول، ومراعاةً للفواصل.

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا، تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا، وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا** ﴾⁽٢⁾، كُرّر لفظ (**ٱلرَّحْمَـٰن**) تنبيهًا على أنّه -سبحانه وتعالى- هو الرّحمن وحده من قبل أَنّ أصول النعم وفروعها ليست إلا منه، وكرّر (**وَلَدًا**) في موضع المفعول ثلاث مرّات تأكيدًا للمعنى السابق؛ فمن أضاف الولد إلى الرحمن فقد جعله كبعض خلقه وأخرجه بذلك عن استحقاق اسم الرحمن⁽٣⁾. ثمَّ انظر كيف أسهمت الفواصل الثلاث (**وَلَدًا**) المتكرّرة -مع تنوين الفتح الشائع في هذه السورة- في إنتاج نغمةٍ صوتيةٍ عذبةِ الإيقاع.

وفي قوله تعالى: ﴿ **وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ، قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ، قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ** ﴾⁽٤⁾، أُسقطت اللام من (**مُّرْسَلُون**) وأُثبتت في (**لَمُرْسَلُون**) الثانية؛ لأنَّ الأول ابتداء إخبار والثاني جواب إنكار⁽٥⁾، فأُكّدَ الجواب بالقسم الّذي يفهم من قوله: (**رَبُّنَا**

---

(١) النحاس، أبو جعفر: معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكّة المكرّمة، ط١، ١٤٠٩هـ، ١٩٦/٤.

(٢) مريم: ٨٨-٩٢.

(٣) انظر الزمخشريّ: الكشّاف،٤٥/٣

(٤) يس: ١٣- ١٦.

(٥) انظر الزمخشريّ: الكشاف،٩/٤.

يَعۡلَمُ)، و(إِنَّا)، واللام في (لَمُرۡسَلُون)، واسمية الجملة[١]. فالردّ على المنكرين بتكرار (إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ) أقوى في المعنى والدلالة من الردّ بـ(إِنَّا لَصَادِقُون) المناسبة لقولهم: (إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ)، واختيار (تَكۡذِبُون) على (كَـاذِبُون) للدلالة على التجدُّد[٢]، ولتحقيق التناسبّ الصوتيّ مع (مُّرۡسَلُون) المكرّرة.

وفي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، هُوَ ٱلۡحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ، قُلۡ إِنِّى نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣]، يربط المولى -عزَّ وجلَّ- بين تكوين السماء والأرض وتكوين الإنسان ورزقه من الطيبات، ويعقّب على هذه الآيات والهبات بأنَّ الذي يخلق ويُقدّر ويُدبّر هو الله ربكم (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ). وأمام هذه الآيات والهبات، وما تلاها من تعقيبات، وفي أشدّ اللحظات امتلاءً بحقيقة الوحدانية والألوهية والربوبية: (فَٱدۡعُوه مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)، يجيء التلقين لرسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- ليعلن للقوم أنه منهيّ عن عبادة ما يدعون من دون الله مأمورٌ بالإسلام لله ربّ العالمين (وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ). فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة، ومن ثمَّ يذكرها القرآن في مكان واحد بهذا الترابط، ويتخذ منها برهانه على

---

[١] انظر الشوكانيّ: فتح القدير، ٤١٨/٤.
[٢] انظر الألوسي: روح المعاني، ٣٩٤/١١.
[٣] غافر: ٦٤- ٦٦.

وحدانيّة الخالق، ويوجّه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده مخلصا له الدين(١)، وقد تكرّرت (رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ) ثلاث مرّات في تناسق لفظيّ ودلاليّ، ومن ثَمَّ جاءت الفواصل الثلاث معبّرةً عن المعنى نفسه، وهو التأكيد على حقيقة الخضوع والاستسلام لربّ العالمين، فكانت لفظةُ (ٱلۡعَٰلَمِين) أحقُّ بالوضع في هذا المكان لتتساوى الفواصل، ولينسجمَ -في الوقت نفسه- مع حقيقة الخضوع والاستسلام التي تبرزها الآيات(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴾ (٣)، تكرّر الفعل (قَدَّر) ثلاث مرّات للمبالغة والتوكيد، على طريق التعجّب والإنكار والتوبيخ والتهكّم(٤)، "وتكرار (قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ) للدلالة على أنّ الدعاء عليه في الكرَّة الثانية أبلغ من الأولى"(٥). كما أنَّ فاصلة الآيات (الراء المكررة) -بما تحدثه من نغمة واضحة-(٦) تنسجم مع معنى المبالغة والتوكيد الذي تعبّر عنه الآيات.

خامسًا: تفضيل صيغةٍ على أخرى

يكون بإثبات إحدى صيغتين للفظ مع تساوي الصيغتين في الدلالة على المعنى المراد، كما في قوله تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ، خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ، مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴾ (٧). فإنَّه كان يُمكن أن يُقال لأداء المعنى: (**هذا يومٌ عَسِير**) بدل (عَسِر)،

---

(١) انظر قطب، سيّد: في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت/القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ٣٠٩٥/٥.

(٢) الإسكافيّ، الخطيب: درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ٦٣٣/٢.

(٣) المدّثّر: ١٨- ٢٠.

(٤) انظر الثعلبيّ، أبو إسحق: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، ٧٣/١٠.

(٥) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط٣- ١٤٢٠هـ، ٧٠٦/٢٠.

(٦) انظر السعران، محمود: علم اللغة مقدمة للقارئ العربيّ، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧، ص١٤٣.

(٧) القمر: ٦- ٨.

وكلاهما صيغتان من صيغ الصفة المُشبَّهة. وقد جاء كذلك في آياتٍ أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ، عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴾(١)؛ إذ كان يتحقّق التناسب هناك بين الفواصل بالصيغة الثانية (عَسِير)، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾(٢)؛ لأنَّ ذلك يتطلّبه التناسب المقصود في السورة -أيضًا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾(٣)، فإنّ (**تَبۡتِيلا**) وضعت موضع (**تبتُّلاً**) مصدر (تبتّل)، وقد أوثرت عليها؛ لأنّ بها يتحقّق تناسب الفواصل. والتبتُّل: الانقطاع، يُقال: بتلت الشيء: أي قطعته وميّزته من غيره، فجيء بـ(**تَبۡتِيلا**) على معناه مراعاة للفواصل(٤).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴾(٥). قيل في معنى هذه الآية: إنّ قوم نوح كذّبوه وقالوا إنّه مجنون وازدجروه، أي أهانوه وشتموه وتوعّدوه وزجروه عن تبليغ ما أُرسل به بأنواع الزجر(٦)، وقيلَ: (**وَٱزۡدُجِرَ**) بالبناء للمفعول لأنّه هو الذي يكون به تناسُب الفواصل مع دلالة المقام على الفاعل المحذوف(٧).

ويُلاحظ أنّ القرآن لا ينظر إلى اللفظ قبل النظر في إتقان المعنى، ولكنّه ينظر إلى كمال المعنى وجمال اللفظ في الوقت نفسه. وقد يقال: إنَّ هذا التقرير يعترضه ما جاءت عليه بعض الآيات، من مثل قوله تعالى: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ، تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾(٨).

---

(١) المدّثّر: ٩و١٠.
(٢) الفرقان: ٢٦.
(٣) المزمّل: ٨.
(٤) انظر الزمخشريّ: الكشّاف، ٦٣٩/٤.
(٥) القمر: ٩.
(٦) انظر الأندلسيّ: البحر المحيط في التفسير، ٤٣٣/٤.
(٧) انظر الألوسيّ: روح المعاني، ٨١/١٤.
(٨) القمر: ١٣و١٤.

فإنَّ المراد -والله أعلم- الإخبار بأنّ الله تعالى قد تفضَّل على نوحٍ -عليه السلام- فحمله على (**سَفِينَةٍ**) نجَّاه بها من الغرق وأنقذه من الطوفان. ولكنّ لفظ (**سَفِينَةٍ**) هو اللفظ الصريح المعهود في اللغة للدلالة على هذا المسمَّى وهذا المعنى، وقد ورد في قصّة نوح ذاتها في قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١). ولفظة (الفلك) – كذلك- لفظة صريحة وموضوعة في اللغة للدلالة على هذا المعنى، وجاءت في عدّة مواضع من قصّة نوح، منها قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ، وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴾(٢). وقوله سبحانه: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٤). ثمَّ إنَّ كلا اللفظين: (**ٱلسَّفِينَة**) و(**ٱلۡفُلۡك**) أوجز وأوضح في الدلالة من الوصف بعبارة مركَّبة من ألفاظ ثلاثة: (ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ) (٥).

وليس في العدول عن اللفظ الواحد إلى الألفاظ الثلاثة تغليبٌ للاعتبارات اللفظية على الاعتبارات المعنويّة، وأنّه قُصِدَ بذلك مجرّد تحقيق التناسب بين الفواصل، فالأمر ليسَ كذلك؛ لأنّ القرآن لا يُغلِّب الناحية اللفظيّة على الناحية المعنويّة، كما هو الحال في كلام فصحاء العرب أو سجع الكهّان.

إنَّ اختيار التعبير بالوصف ذي اللفظين قد أُرِيدَ به لفت الانتباه إلى ناحيةٍ معنويّة جديرة بأن يُلتَفت إليها، وهي امتنان الله تعالى على نوح -عليه السلام- وتفضُّله عليه بهدايته إلى صناعة

---

(١) العنكبوت: ١٥.

(٢) هود: ٣٧و٣٨.

(٣) المؤمنون: ٢٧.

(٤) المؤمنون: ٢٨.

(٥) انظر تاج، عبد الرحمن: السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء السادس والثلاثون، نوفمبر، ١٩٧٥، ص٣٢و٣٣.

سفينة من ألواح خشبية مربوطة بدُسُر، و(**ذَاتُ الألْوَاحِ وَالدُّسُرِ**) هي السَّفينة الّتي أنشأها نوحٌ عليه السّلام. "ويفهم من هذين الوصفين أنّها السّفينة، فهي صفة تقوم مقام الموصوف وتنوب عنه، ونحوه: قميصي مسرودةٌ مِن حديد، أي درع، وهذا من فصيحِ الكلامِ وبديعه. ولو جمعت بين الصّفة والموصوف فيه لم يكن بالفصيح"(١).

وقد أشار الفخر الرازي إلى ذلك في (التفسير الكبير)، فقال: "قولُه-سبحانه: ﴿ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ، تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا ﴾، حذف الموصوف وهو (**سَفِينَةٍ**) وأقامَ الصفة مقامه وهي (ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ)، إشارة إلى أنّها كانت من ألواح مركبة موثّقة بدُسُر، وكان انفكاكُها في غاية السهولة ولم يقع، فهو بفضل الله، والقرينة الدالّة على ذلك قوله: (تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا) أي بمنظرٍ ومرأى منّا وحفظٍ لها(٢)، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ﴾(٣).

ومن هذا يتبيّن أنّ التعبير بـ(ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ) قد اقتضاه النظر إلى الدلالة الخاصّة لهذا التعبير في الدرجة الأولى، ثمّ يأتي تناسب الفواصل مرادًا حتمًا، ومقصودًا قطعًا، بعد مراعاة ما يقتضيه المعنى(٤).

وآية أخرى نستدلُّ بها على أنَّ القرآن لا ينظر إلى اللَّفظ على حساب المعنى كما يفعل كثيرٌ من الخطباء والكتّاب في سجعهم، وأنّه لا يستعمل لفظًا قريب الدلالة على ذلك المعنى من أجل الوصول إلى التناسب بين الفواصل، فالفواصل تتبع المعاني، ولا تكون مقصودةً في نفسها، يقول الرمّانيّ: "لذلك كانت الفواصل بلاغة والسجع عيبًا"(٥). وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿ فَمَن

---

(١) الأندلسيّ: البحر المحيط في التفسير، ٣٩/١٠.
(٢) انظر الرازي: التفسير الكبير، ٢٩٧/٢٩.
(٣) هود: ٣٧.
(٤) انظر تاج، عبد الرحمن: السجع وتناسب الفواصل، ص٣٤.
(٥) السيوطيّ: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ٢٥/١.

شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾(١). فقد ذهب الإمام الشوكانيّ إلى أنّ الضمير المنصوب في هذه الآية راجعٌ إلى (تَذۡكِرَةٌ) في قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ ﴾(٢)؛ لأنَّ التذكرة في معنى الذّكر والوعظ. والذي سوَّغ عود الضمير المذكَّر إلى ذلك المرجع المؤنّث أن القرآن قد عدل عن الضمير المؤنَّث الذي مرجعه مؤنَّث إلى الضمير المذكَّر؛ ليتحقّق تناسُب الفواصل في هذه الآيات: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ، فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ، بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ، كِرَامِۭ بَرَرَةٍ، قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾. ولكنَّ هذا العدول لا يكون إلا في المؤنّث غي الحقيقيّ، يقول الزجَّاج: "واعلم أن هذا إنَّما يجوز فيما يكون تأنيثه غير حقيقي، أما الذي يكون تأنيثه حقيقيًا، فلا يجوز"(٣). وأجود من هذا التفسير أن يُقال: إنَّ الضمير في (ذَكَرَهُۥ) عائدٌ على القرآن، والقرآن مذكَّر، إلا أَنَّه لَمّا جَعل القرآنَ تذكرةً أخرجه على لفظ التذكرة، وهو إن لم يجرِ له ذكرٌ في هذا المقام، فهو معهودٌ معلومٌ على كلّ حال(٤). ويؤيّد ذلك ما جاءت به الآيات التالية : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ، مَّرۡفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ، بِأَيۡدِي سَفَرَةٍ، كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴾. فإنَّ المعهود أنَّ هذه أوصاف للقرآن الكريم.

ويمكن أن يُقال: إنَّ الضمير في (إِنَّهَا تَذۡكِرَةٌ) للسورة أو للآيات السابقة، والسور والآيات هي القرآن، فيكون الضمير في (ذَكَرَهُۥ) عائدًا على معنى (التذكرة) وهو (القرآن)(٥). ويُفهم من هذا أنَّ وضع ضمير المذكّر موضع ضمير المؤنّث لم يتحقّق لمراعاة تناسب الفواصل فقط، بل لتناسب المعنى قبل كلِّ شيء.

---

(١) عبس: ١٢.

(٢) عبس: ١١.

(٣) الزجّاج، أبو إسحق: معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٣/٢٠٩.

(٤) انظر القرطبيّ، شمس الدين: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ١٩/٢١٥.

(٥) انظر ابن قُتيبة: غريب القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، ص٥١٤. والفراء: معاني القرآن، ٣/٢٣٦.

وآيةٌ أخرى، هي قوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾(١). وهنا يُقال: إنَّ الآية عدلت عن المقابل الأصليّ القريب المختَصر، وهو (**أوعظتَ أم لم تعظ**) إلى المقابل الطويل الوارد في الآية الكريمة، وهو (أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ) لا يظهر له غرض إلا مراعاة التناسب بين الفواصل بين سائر الآيات، يقول المولى -عزَّ وجلّ- على لسان هود وهو يَعظُ قومه ويُحذّرهم سوء عاقبة كفرهم وعنادهم: (فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَٱتَّقُوا ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ، وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ، إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾(٢)، فقالوا له: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴾. إنَّ هذا المقابل المطوَّل الذي عدلت به الآية عن المقابل المختَصر قد تحقّق به تناسب الفواصل، ولكن هذا التناسب لم يتحقّق بالعدول عن التركيب المختصر إلى المُطوَّل بالنظر إلى اتّحاد المعنى في التركيبين؛ فإنّ المعنى ليسَ واحدًا فيهما، وفي ذلك يقول الزمخشريّ: "ليسَ المعنى بواحدٍ، وبينهما فرق؛ لأنَّ المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته، فهو أبلغ في قلّة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ"(٣).

وما قيل في تلك الآية من سورة (الشعراء) يُقال في نظائرَ لها، مثل قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾(٤). فقد عدلت الآية عن المُقابل المُختَصر لقوله (أَصَدَقۡتَ) وهو (**أم كذبت**) إلى المقابل المطوَّل: (أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ)، وهو يدلّ على معنًى أقوى وأبلغ، فإنَّ المراد -والله أعلم- بيان أنَّ الهُدهُدَ لا يجرؤ على الكذب على سُليمان -عليه

---

(١) الشعراء: ١٣٦.
(٢) الشعراء: ١٣١-١٣٥.
(٣) الزمخشريّ: الكشاف، ٣٧٢/٣.
(٤) النمل: ٢٧.

السلام- فيما يُخبره به عن مملكة سبأ، إلا إذا كان الكذب عادةً له وخُلُقًا متأصّلاً فيه(١). وفي ذلك يقول الزمخشريّ: "وأراد بقوله (أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ): أصدقت أم كذبتَ، إلا أنّ (كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ) أبلغ؛ لأنّه إذا كان معروفًا بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبًا لا محالة، وإذا كان كاذبًا اتُّهِمَ بالكذب فيما أخبر به، فلم يُوثق به"(٢).

وهذا هو المعنى الذي يُفيده التركيب الذي جاءت به الآية: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾، ثمَّ يتحقّقُ به بعد ذلك تناسُب الفواصل.

ومن الأمثلة القرآنيّة التي خُولفَ فيها الأصلُ القريب إلى تركيبٍ آخرَ طويل لمراعاة أمرٍ معنويّ أبلغ منه، ولم تكن هذه المُخالفة مُجرّد تناسب فواصل كما يُظنّ قوله تعالى: (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾(٣)، وقوله تعالى: (قَالَ إِذْ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾(٤)، فقد عدلت الآيتان الكريمتان عن الظاهر المألوف، فأُسندَ الخضوع للأعناق في الآية الأولى، وأُسندَ السجود للكواكب في الآية الثانية، مع إيثار صيغة جمع السلامة للعقلاء (**خَـٰضِعِين**) و(**سَـٰجِدِين**) بدل لفظتيّ (**خَاضِعة**) و(**سَاجِدة**)، وهو الأصل والظاهر؛ لأنه لَمّا وصفها بالخضوع والسجود -وهما من صفات من يعقل- أجراها مجرى من يعقل؛ فلهذا جمعت جمع من يعقل(٥).

---

(١) انظر الرازيّ: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، ٥٥٣/٢٤.
(٢) الزمخشريّ: الكشاف، ٤٠٥/٣.
(٣) الشعراء: ٤.
(٤) يوسف: ٤.
(٥) انظر المبرّد، أبو العباس: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ٢٢٥/٢.

إنَّ الحكمة من ذلك أنّ الأعناق لما وُصفت بالخضوع الذي هو خاصٌّ بالعقلاء صحَّ لأن يجري عليها من أجل ذلك أحكام العقلاء فجُمِعت جموعهم ووُصِفت بما يُوصفون به، والمعنى أنّها إذا ذلّت رقابُهم ذلّوا، فالإخبار عن الرقاب إخبارٌ عن أصحابها، ويُسوغ في كلام العرب⁽¹⁾.

والشيء نفسه يُقال في (سَٰجِدِينَ) في سورة (يوسف) ، فقد وُصِفت الكواكب بوصف العقلاء، وهو كونها ساجدة ، فالعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلته . قال الواحديّ: "إنَّه تعالى لمَّا وصفها بالسجود صارت كأنّها تعقل، فأَخبَر عنها كما يُخبِر عمّن يعْقل"⁽²⁾، كما فِي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ ⁽³⁾.

وقد يعدل القرآن عن صيغة مفعول إلى صيغة فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾⁽⁴⁾، فمعنى (دَافِقٖ) مدفوق، لموافقتها رؤوس الآيات التي هي منهنّ أي توافق كلمتي(ٱلتَّرَآئِبِ) و(لَقَادِرٞ) في السورة نفسها⁽⁵⁾.

فمن خصائص فواصل القرآن الكريم التي أعجزت البلغاء أنّها نازلة في مواضعها، ملائمة لمواقعها، بريئة من التكلُّف، تتبع فيها الألفاظ المعاني، وتنهض خير نهوض بما تتطلّبه هذه المعاني، فلا نقصَ ولا زيادة ولا تكرار. اقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا، وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ﴾⁽⁶⁾، تجد أن (كُبَّارٗا) بمعنى كبير، ولكنّها جاءت هنا للدلالة على هذا المعنى، ولتحقيق التناسب مع (خَسَارٗا)، على حين أن كلمة كبير وردت في آية أخرى محقّقة للمعنى وللتناسب معًا في قوله

---

(١) انظر الشوكانيّ: فتح القدير، ١١٧/٤.

(٢) الرازي: التفسير الكبير، ٤١٨/١٨.

(٣) النمل: ١٨.

(٤) الطارق: ٦.

(٥) انظر الفراء: معاني القرآن، ٢٥٥/٣.

(٦) نوح: ٢١و٢٢.

تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا، وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴾(١).

وكذلك جاءت كلمة (كَفَّار) صيغة مبالغة من الكفر في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ، وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾(٢)، لتناسب فاصلة الألف والراء (ٱلنَّهَار، كَفَّار). وجاءت كلمة (كَفُور) صيغة مبالغة أخرى من الكفر في آية ثانية، هي قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ، وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴾(٣)، لتناسب فاصلة الواو والراء في (فَخُورٌ)، وجاءت (فَخُور) -كذلك- منسجمةً مع (كَفُور) في المعنى؛ لأنّ من قنط وكفر، ثمَّ فرح بحظٍّ من الدنيا وعظم في نفسه، فإنّه سيختال ويفتخر به ويتكبَّر على الناس(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ، قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً، نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً، أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً، إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً، إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلاً، إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلاً، وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ

---

(١) الإسراء: ٣٠و٣١.
(٢) إبراهيم: ٣٣و٣٤.
(٣) هود: ٩و١٠.
(٤) انظر الزمخشريّ: الكشاف، ٤٨٠/٤.

وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴾(١)، عدل السياق القرآنيّ عن (قـوْلا) إلى (قِيلا) اسم من القول بقلب الواو ياء، و"القيل والقول واحد، أي: لا أحد أصدق قَولا من الله"(٢)، إحرازًا للتَنَاسب مع فواصل آيات السورة المبنيّة على الياء واللام والألف(٣).

سادسًا: الانسجام الصوتيّ

هُوَ أَن يكون الْكَلام سلسًا متحدّرًا كتحدّر المَاء المنسجم لسهولته وعذوبة أَلْفَاظه وعدم تكلّفه؛ ليَكُون لَهُ في الْقُلُوب موقعٌ وَفِي النُّفُوس تأْثير، من ذلك ما وقع في أثناء آيات التّنزيل من تناسقٍ صوتيّ بين فواصله(٤). ولا تكاد أية دراسة لأسلوب القرآن الكريم تبلغ غايتها دون الإشارة إلى تناسب الفواصل (رؤوس الآيات)، وما تحقّقه من انسجام صوتيّ.

ولقد كانت لفتات الفرّاء في كتابه (معاني القرآن) تؤكّد ضرورة اعتبار النسق الموسيقي للآيات عند التصدّي لبحث لغة القرآن وأسلوبه. قال: "قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾(٥)، معناه: الأدبار"(٦)، وكان القرآن نزل على ما يُستحب من كلام العرب من موافقته المقاطع، ألا ترى أنه قال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴾(٧)، فثقل في (ٱقۡتَرَبَتِ) لأن آياتها مثقلة. وقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴾(٨)، "فاجتمع القرّاء على تثقيل الأول وتخفيف هذا"(٩). ومثله: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾(١٠). وقال في آية أخرى: ﴿ جَزَآءَ

---

(١) المزمّل: ١- ٨.

(٢) الأندلسيّ: البحر المحيط في التفسير، ٧٤/٤.

(٣) انظر الزركشيّ: البرهان في علوم القرآن، ٣٩٥/٢.

(٤) انظر الحنفيّ، أبو البقاء: الكلّيّات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص١٩٦.

(٥) القمر: ٤٥.

(٦) الفراء: معاني القرآن، ١١٠/٢.

(٧) القمر: ٦.

(٨) الطلاق: ٨.

(٩) الفراء: معاني القرآن، ٢٢٤/٢.

(١٠) الرحمن: ٥.

مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴾(١)، فأجريت رؤوس الآيات على هذه المجاري، وهو أكثر من أن يضبط(٢).

وللفواصل القرآنية ميزة التنوّع، فقد تجيء متّحدة الحرف الأخير، كقوله تعالى: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدًا، وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالاً مَّمۡدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا، ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ، كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَـٰتِنَا عَنِيدًا، سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾(٣)، فجاءت فواصل الآيات (الواو والياء المدّيّتان) منسجمةً ومتآلفة, لتُحقِّقَ تناسقًا صوتيًّا على امتداد الآيات.

وكثيرًا ما تجيء الفواصل مسبوقة وممدودة بحرف من حروف المدّ، فتستريح النفس عنده، ويجد النَّفَسُ الوقفة الملائمة، وتحسّ الأذن وقع الكلمات اللذيذ، مع روعة المعنى وبراعة الصورة وتميّز التعبير. فمن المسبوقة والممدودة بالألف قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا، حَدَآئِقَ وَأَعۡنَـٰبًا، وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا، وَكَأۡسًا دِهَاقًا، لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا وَلَا كِذَّٰبًا ، جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا، رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَـٰنِ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابًا، يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا، ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا، إِنَّآ أَنذَرۡنَـٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾(٤).

---

(١) النبأ: ٣٦.
(٢) انظر الفراء: معاني القرآن، ٣٢٤/٢.
(٣) المدّثر: ١١- ١٧.
(٤) النبأ: ٣١- ٤٠.

ومن المسبوقة بالياء والممدودة بالألف قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ، قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً، نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً، أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً، إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً، إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلاً، إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً، وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً، رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلاً، وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلاً ﴾(١).

ومن المسبوقة بالواو والممدودة بالألف قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا، وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرًا مَّحۡجُورًا، وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٍ فَجَعَلۡنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾(٣). على أنها قد تأتي في كثيرٍ من السور منتهية بالنون أو الميم، فيتحقّق بالمدّ والنون أو بالمدّ والميم ترنيمٌ وإيقاع منغّم يُضفي على الأسلوب جمالاً فوق جماله، كقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ، مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ، أَمۡ لَكُمۡ كِتَـٰبٌ فِيهِ تَدۡرُسُونَ، إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ، أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَـٰنٌ عَلَيۡنَا بَـٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ

---

(١) المزمّل: ١- ٨ .
(٢) الفرقان: ٣- ٤.
(٣) الفرقان: ٢٢-٢٣.

ٱلۡقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ، سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ، أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ، يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ، خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ، فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ، وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾(١).

وقد تتناوب حروف المدّ -مع تنوين الفتح- في تشكيل البنية الصوتية لفواصل الآيات. ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا، لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا، يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا، إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠، هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ، وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا، وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴾(٢)، منح التنوّع

---

(١) القلم: ٣٥- ٤٥.

(٢) الأحزاب: ٧-١٣.

الصوتيّ لحروف المدّ _مع تنوين الفتح_ السياق القرآنيّ تنوّعًا في الإيقاع يعبّر عن تنوّع المواقف والانفعالات وحالة الاضطراب والهلع التي انتابت المؤمنين في غزوة الأحزاب، لولا تثبيت الله لهم.

وقد تنتهي فواصل القرآن الكريم بحرف مدّ بعينه (الياء مثلاً)، مع اختلاف مخارج حروف الروي وصفاتها، ومع ذلك تتحقّق -عند الوقف عليها- بنية إيقاعيّة، ووحدة صوتية، نحو قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ، يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ، ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ ٱلۡعَزِيزُ، مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ، أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِىَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(١).

وقد تسهم فواصل القرآن الكريم في تشكيل الصورة الجمالية للآيات معنىً ودلالة، فالناظر في فواصل القرآن الكريم يدرك أنها تلعب دورًا جماليًا في الربط بين آيات القرآن الكريم، وفي إضفاء روح الانسجام على السورة؛ ففي سورة مريم _مثلاً_ تشعر أن للسورة إيقاعًا موسيقيًا خاصًا، فحتى جِرْس ألفاظها وفواصلها فيه رخاء وفيه عمق(٢)، قال تعالى: ﴿ كٓهيعٓصٓ، ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ، إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا، قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّى وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا، وَإِنِّى خِفۡتُ

---

(١) الشورى: ١٧-٢١.

(٢) انظر قطب، سيّد: في ظلال القرآن، ٤/٢٣٠٠.

ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴾(١). أمَّا المواضع التي تقتضي الشدّة والعنف فتجيء فيها الفاصلة مشدَّدة ومفتوحة (دالاً في الغالب)، مثل: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا، لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا، تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا، وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا، إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا، لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا، وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا، إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا، فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا، وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ (٢). "وتنوُّع الإيقاع الموسيقيّ والفاصلة بتنوع السياق والموضوع يبدو جليًّا في هذه السورة"(٣).

وسورة الفتح تتنوّع فواصلها بين النون والميم والراء والزاي واللام والباء والدال، وهي حروف تختلف مخارجها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا، لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا، وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا، هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا،

---

(١) مريم: ١- ٦.

(٢) مريم: ٨٨ - ٩٨.

(٣) قطب، سيّد: في ظلال القرآن، ٢٣٠٠/٤.

لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا، ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَيُعَذِّبَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴾(١). فالنون –مثلاً- تخرج من الخيشوم، والباء والميم حرفان شفويّان، والرّاء تخرج من طرف اللسان، وهي حرفٌ مكرّر، ولكن مجيء الفاصلة منصوبةً دائمًا يُسهمُ في تآلف رؤوس الآيات وتوافقها في نظامٍ واحد يُعوّض عن اختلاف الحروف في الفواصل، في حين نجد سورة **محمّد** –مثلاً- تحتفظ بالفاصلة -وهي حرف الميم- في أوّلها وفي آخرها: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ، وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ، ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾(٢)؛ لأنّها دائمًا تأتي ساكنة، فلزم أن تحتفظ بحرف واحد ومخرج واحد، فنتج عن ذلك تآلفٌ ممتعٌ بين فواصل السورة تحقّق به الانسجام الصوتيّ.

وقد عبّر مصطفى صادق الرافعيّ عن ظاهرة الانسجام الصوتيّ في القرآن الكريم بقوله: "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الكريم إلا صورة تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متّفقة مع آياتها في قرار الصوت اتّفاقًا عجيبًا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعي في القرآن"(٣).

---

(١) الفتح: ١- ٦.

(٢) محمد: ١- ٣.

(٣) الرافعيّ، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥، ص١٥٠.

وقد تكون وحدة الوزن الصرفيّ للكلمات كفيلةً بتحقيق الإيقاع الصوتيّ والنغميّ، رغم اختلاف الفواصل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ، وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ، ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ، إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ، فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ، يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ، إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ، يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ، فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴾ [1]، حيث جاءت فواصل الآيات (**ٱلطَّارِق، ٱلثَّاقِب ، حَافِظ، دَافِق**...) متّحدة الوزن الصرفيّ، على وزن (فاعل)، فأسهمت حروف المدّ المتكرّرة في الفواصل في تحقيق التآلف والانسجام الصوتيّ، والذي يُعضّد هذا التفسير أنَّ الآيات آثرت وزن (**دَافِقٍ**) على وزن (**مدفوقٍ**)، ومعناهما واحد، قال أبو جعفر النحّاس: "وأهل الحجاز أفعل الناس لهذا يأتون بفاعل بمعنى مفعول إذا كان نعتا مثل: ماء دافق، وسرّ كاتم أي مكتوم"[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا، يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا، وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا، وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا، وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا، وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقًا ﴾[3]، أسهمَ تنوين الفتح المتكرّر في فواصل الآيات في توحيد النغمة الصوتية لهذه الفواصل رغم اختلافها ، وتنوّع صفاتها بين الجهر والشدّة والرخاوة.

---

[1] الطارق: ١- ١٠.

[2] النحّاس، أبو جعفر، إعراب القرآن، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلميّة، ط١، ١٤٢١هـ، ١٢٤/٥.

[3] الجنّ: ١- ٦.

إنّ ظاهرة الانسجام الصوتيّ ظاهرة عجيبة امتاز بها القرآن في رصف حروفه وترتيب كلماته، ذلك أنك إذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحة تشعر بلذة جديدة في رصف هذه الحروف بعضها بجانب بعض في الكلمات والآيات، ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين اللين والشدة والخشونة والرقة والجهر والخفية، على وجه دقيق محكم وضع كلاً من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان، حتى تألَّفَ من المجموع قالبٌ لفظي مدهش(١).

الخاتمة

لقد بدا جليًا من خلال تتبُّع ظاهرة تناسب الفواصل في القرآن الكريم أنَّ هذا الشكل من التعبير لا تفرضه طبيعة النسق القرآني فحسب -كما يُخيّل لبعضهم- بل إنَّ الفاصلة القرآنيّة تأتي لأداء وظيفتين أساسيتين في الوقت نفسه: إكمال معنى الآية أو الجملة القرآنيّة، ومتى انتظم المعنى حسُن بذلك الكلام، وهذه هي الوظيفة الثانية للفاصلة.

وتناسب الفواصل بهذا الشكل يختلف عن السجع المألوف في كلام البشر؛ لأنَّه -كما رأينا- يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدَّى به السجع، وفرقٌ بين أن يأتي المعنى منتظمًا دون اللفظ، وبين أن ينتظمَ الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدّي المعنى المقصود فيه.

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ الاحتفال بالمعنى في النسق القرآني يغفل الانسجام الصوتيّ، أو يُقلّل من أهميّته البيانية والفنيّة، والواقع أنّ الوقع الإيقاعيّ الناتج عن ترتيب الفواصل القرآنية هو مطلبٌ في حدّ ذاته، يُضاف إلى الأغراض الأخرى الفنيّة والبيانيّة التي يُبرزها تناسب الفواصل.

ومهما يكن من أمر، فإنَّ السجع في أحسن أحواله وظيفة لفظية تأتي لتناسق أواخر الكلمات في نثر الخُطباء والكُتّاب، فيكون هدفه في الدرجة الأولى إكمال السياق بألفاظٍ ذات وقعٍ موسيقي، حتّى ولو كان ذلك على حساب المعنى.

ومن عجيب أمر هذا النظام الصوتيّ البديع أنه كما كان دليل إعجاز من ناحية، كان سورًا منيعًا لحفظ القرآن من ناحية أخرى، وذلك أن من شأن النظام الصوتيّ أن يسترعي الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن الكريم، وبذلك يبقى أبد الدهر سائدًا على ألسنة الخلق وفي آذانهم ويعرف بذاته ومزاياه بينهم فلا يجرؤ أحد على تغييره وتبديله.

أمّا عن أهمّ النتائج التي توصّلَ إليها البحث، فهي على النحو التالي:

- تؤدّي الفاصلة القرآنيّة وظيفة لفظيّة معنويّة في وقت واحد. إنّها مَهمَّة فنيّة مميّزة ، فلا تفريط بالألفاظ لحساب المعاني، ولا إفراط في المعاني على حساب الألفاظ، إنّها علاقة

---

(١) انظر الزرقانيّ، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٣، ٢١٣/٢- ٢١٦.

متكاملة شكلاً ومضمونًا، لذلك كانت الفاصلة القرآنية أسمى وأرقى بلاغةً ودلالةً من السجع، وإن توافقا صوتيًّا.

- للفواصل القرآنيّة أهميّةٌ كبيرة في إظهار بدائع المعاني القرآنية الكامنة في ربط مضمون الآيات بفواصله، وتُعدّ وسيلةً لتدبُّر آيِ القرآن الكريم عن طريق معرفة العلاقات بين الآيات وفواصلها. وربَّما ساهم الربط بين مضمون الآيات الكريمة وفواصلها في تيسير حفظ الآيات القرآنية وتفسيرها.
- هناك توافقٌ بديع بين التركيب النحويّ للجملة القرآنيّة وقيمته البلاغيّة؛ حيث تؤثر فواصل القرآن الكريم في كثيرٍ من المواضع نمطًا لغويًّا على آخر، كالتقديم والتأخير، أو الحذف، أو الزيادة، أو التكرار، وذلك استجابةً للقيم الجماليّة، وتحقيقًا للانسجام للصوتيّ.

المصادر والمراجع

- القرآنُ الكريم.
- ابن الأثير، ضياء الدين. (١٤٢٠هـ). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة العصريّة. بيروت.
- الإسكافيّ، الخطيب. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م). درة التنزيل وغرة التأويل. ط١.تحقيق: محمد مصطفى آيدين. جامعة أم القرى. مكة المكرّمة.
- الألوسيّ، شهاب الدين. (١٤١٥هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. ط١. تحقيق: علي عبد الباري عطيّة. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الأندلسيّ، أبو حيّان. (١٤٢٠هـ). البحر المحيط في التفسير. ط١. تحقيق: صدقي محمد جميل. دار الفكر. بيروت.
- الأنصاريّ، ابن زكريا. (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م). فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن. ط١. تحقيق: محمد علي الصابونيّ. دار القرآن الكريم. بيروت.
- الباقلانيّ، أبو بكر. (١٩٩٤). إعجاز القرآن. تحقيق: أبو بكر عبد الرازق. مكتبة مصر.
- الباقوليّ، أبو الحسن. (١٤٢٠هـ). إعراب القرآن المنسوب للزجَّاج. ط٤. تحقيق: إبراهيم الإبياري. دار الكتاب المصريّ.
- البغداديّ، أبو بكر. (١٤٠٠هـ). السبعة في القراءات. تحقيق: ط٢. شوقي ضيف. دار المعارف بمصر.
- تاج، عبد الرحمن. (١٩٧٥). السجع وتناسب الفواصل وما يكون من ذلك في القرآن الكريم. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الجزء السادس والثلاثون.

- الثعلبيّ، أبو إسحق. (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م). الكشف والبيان عن تفسير القرآن. ط١. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- ابن جنّي، أبو الفتح. (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م). المنصف. ط١. دار إحياء التراث القديم. القاهرة.
- حسّان، تمام. (٢٠٠٠). البيان في روائع القرآن. ط٢. عالم الكتب. القاهرة.
- الحنفيّ، أبو البقاء. (د.ت). الكلّيّات. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة. بيروت.
- الحوفيّ، أحمد. (١٩٧٢). سجع القرآن فريد. مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الجزء التاسع والعشرون.
- الخفاجيّ، ابن سنان. (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م). سر الفصاحة. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت.
- الدانيّ، أبو عمرو. (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م). البيان في عدّ آي القرآن. تحقيق: غانم قدوري الحمد. مركز المخطوطات والتراث. الكويت.
- الرازيّ، فخر الدين. (١٤٢٠هـ). التفسير الكبير. ط٣. دار إحياء التراث العربيّ. بيروت.
- الرافعيّ، مصطفى صادق. (٢٠٠٥). إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة. ط٨. دار الكتاب العربيّ. بيروت.
- الزجّاج، أبو إسحق. (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م). معاني القرآن وإعرابه. عالم الكتب. بيروت.
- أبو زرعة، عبد الرحمن. (د.ت). حجّة القراءات. تحقيق: سعيد الأفغاني. دار الرسالة.
- الزرقانيّ، محمد عبد العظيم. (د.ت). مناهل العرفان في علوم القرآن. ط٣. مطبعة عيسى البابي الحلبيّ. القاهرة.
- الزركشيّ، بدر الدين. (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م). البرهان في علوم القرآن. ط١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية.
- الزمخشريّ، جار الله. (١٤٠٧هـ). الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل. ط٣. دار الكتاب العربيّ. بيروت.
- السعران، محمود. (١٩٩٧). علم اللغة مقدمة للقارئ العربيّ. ط٢. دار الفكر العربي. القاهرة.
- سلام، محمد زغلول. (١٩٦٨). أثر القرآن في تطوّر النقد العربيّ. ط٣. دار المعارف بمصر.

- سلام، محمد زغلول. (١٩٧١). لغة الشعر وكتاب "ما يجوز للشاعر في الضرورة". مجلة مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة. (٢٧).
- السيوطيّ، جلال الدين. (١٩٧٤). الإتقان في علوم القرآن. ط١. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامّة للكتاب. القاهرة.
- السيوطيّ، جلال الدين. (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م). معترك الأقران في إعجاز القرآن. ط١. دار الكتب العلميّة. بيروت.
- سيبويه. (١٩٨٨). الكتاب. ط٣. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة.
- الشوكانيّ، محمد بن علي. (١٩٩٧). فتح القدير. ط١. المكتبة العصريّة. بيروت.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (د.ت). العين. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرّائي. دار الهلال. القاهرة.
- الفرّاء، أبو زكريّا. (٢٠٠١). معاني القرآن. ط١. تحقيق: محمد علي النجار وآخرون. الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ابن قُتيبة، أبو محمد عبد الله. (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م). غريب القرآن. تحقيق: أحمد صقر. دار الكتب العلمية. بيروت.
- القرطبيّ، شمس الدين. (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م). الجامع لأحكام القرآن. ط٢. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية. القاهرة.
- القزوينيّ، الخطيب. (١٩٩٨). الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: الشيخ بهيج غزّاوي. دار إحياء العلوم. بيروت.
- قطب، سيّد. (١٤١٢هـ - ١٩٩١م). في ظلال القرآن. ط١٧. دار الشروق. بيروت. القاهرة.
- قطب، سيّد. (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م). التصوير الفنيّ في القرآن. الطبعة الشرعية ١٦. دار الشروق. القاهرة.
- الكرمانيّ، برهان الدين. (د.ت). أسرار التكرار في القرآن. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. دار الفضيلة للنشر. الرياض.
- النحاس، أبو جعفر. (١٤٠٩هـ). معاني القرآن. ط١. تحقيق: محمد علي الصابونيّ. جامعة أم القرى. مكّة المكرّمة.
- النحّاس، أبو جعفر. (١٤٢١هـ). إعراب القرآن. ط١. وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. دار الكتب العلميّة. بيروت.